«حباً في أكلة لحوم البشر» لعبد الرشيد محمودي:

اعادة انتاج القضايا الكبيرة

القاهرة ـ «القدس العربي»

ـ من محمود قرني:

كرس أتيلييه القاهرة ندوة ثلاثاء منتصف شهر رمضان لمناقشة ديوان، «حباً في أكلة لحوم البشر» للشاعر والكاتب «عبدالرشيد الصادق محمودي» الصادر عن مركز الحضارة العربية للنشر والتوزيع قبل عدة أشهر وكان من المقرر أن يناقش الديوان كل من الدكتور عبدالغفار مكاوي والكاتب ادوار الخراط غير أنه تخلف عن الحضور لأسباب لم يعلنها مقدم ومعد الندوة الكاتب أسامة عرابي، الذي قدم ضيفه تقديما ضافيا بدأه بسياحة نحوية لغوية تعليقا على استخدام حرف الجر «في» بدلا من حرف الجر «لام» في عنوان الديوان، وكذلك قدم تعريفا ضافيا بالشاعر جاء فيه أنه أصدر عدة ترجمات منها ترجمته لكتاب «فلسفتي كيف تطورت» لبرتراند رسل الصادر عام 1960 عن مكتبة الأنجلو، وكذلك شارك مع آخرين في ترجمة الموسوعة الفلسفية المختصرة، التي صدرت عن مشروع الألف كتاب عام 1962 وترجم كذلك كتابات طه حسين بالفرنسية وصدرت تحت عنوان «طه حسين بالفرنسية» وصدرت تحت عنوان «طه حسين من الشاطئ الآخر» عن دار الهلال عام 1997 كذلك حقق الكتابات الأولى لطه حسين وصدرت عن دار الشروق عام 2002.

أما عن مؤلفاته فقد أصدر «طه حسين من الأزهر الى السربون» و«اللورد شعبان» مجموعة قصصية صدرت عن الهيئة العامة لقصور الثقافة عام 2004 و«طه حسين بين السياج والمرايا وصدر عن دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة 2005».

بعد ذلك عرج اسامة عرابي على قصيدة «مرضعة الشاعر» وقرأ الاقتباس الذي تقدم هذه القصيدة وهو من مقدمة سليمان البستاني لترجمته لـ«الألياذة» يقول فيه:

«فلما ولد «أي هوميروس» عنيت بتربيته نبية من ولد أوروس الكاهن وكان يتحلب الشهد من ثدييها الى فم الطفل فكان اذا أقبل الليل يتغنى بصوت تسعة من الطير مختلفة الأجناس واذا أقبل الفجر يصبح وهو يلاعب تسعا من الورق، وأوعز الى أبيه أن يبني هيكلا للقيام منشدات السماء فبناه وقص الخبر على ابنه لما بلغ أشده فكانت تهيجه ذكرى الحمام وترنم به في شعره».

أما القصيدة نفسها فتقول:

«أنا لم تصدح لي الورق صباحا
لم يتحلب لي شهد من ثدي نبية
فاليكم أشعارا لا حيلة لي فيها
فيها عسل مر
وبقايا سم دسته الدنيا
مرضعتي».

وقد اضاف اسامة عرابي في قراءته للديوان: ان قصيدة الشاعر عبدالرشيد محمودي جاءت فعل خروج وهدم وتخط، وذلك عبر لغة يلتقي فيها الحضور المرئي واللا مرئي، كاشفا أجواء الحاضر، عبر مقهى جمالي يسعى لاعادة صياغة الوعي عبر لغة تزاوج بين المجاز واللغة المباشرة على نحو ما تكشف العديد من القصائد.

وأضاف عرابي: تظل القصيدة لدى عبد الرشيد كإنبلاج نور لا يكف عن الابتداء والصيرورة اللذين يمسيان الكيفية التي يتعين بها الدال، وندرك بها ماهية الاشياء، التي تحدد تمثل الذات لها، وطرائق اغناء حمولتها. ويتساءل عرابي: ألم يقترح علينا «ميلان كونديرا يوما تعريفنا بوصفنا كائنا ت اشكالية لا تعرف اليقين، ولم تقل بعد كلمتها الأخيرة، أو بتعبير عبدالرشيد ـ حسب عرابي ـ في قصيدته رسالة التعبير:

فلتعلم ان التعبير سفر مضن نحو القاع المظلم ويليه التصعيد المتعثر نحو النور وعليَ اذن أن أصحو ليلا لأراني ملقى في الدنيا دوني الأشياء صحراء من عجز ونفور» ويقطع عرابي النص ليعود الى قراءته قائلا:

ان الشاعر الحق لدى عبد الرشيد محمودي ـ هو الذي يبحث عن طرائده ويلتمسها في أغوار وطبقات سحيقة، كما فعل أسلافه العظام من طراز مالارميه وبول فاليري ورامبو ويتيس وسواهم، مؤمنا أن اللغة كما قال هيدر هي بيت الوجود، في بيتها يقيم الانسان وهؤلاء الذين يفكرون في الكلمات ويخلقون بها هم حراس ذلك البيت وحراستهم تحقق الكشف عن الوجود.

ويضيف أسامة عرابي مختتما حديثه بأن الشاعر ظل وفيا لصوته الخاص الذي لا يتعين الا بنفسه، وبقدرته على تغذية شك متبادل بينه وبين وسطه ومحيطه ونظرته الى العالم لمشروع محتمل وممكن، وظل رومانتيكيا مخلصا لا يغادره الاحساس الدائم بالفقد والوحدة والموت والاغتراب.

وبعد ان أنهى عرابي كلمته المطولة قدم الناقد والمبدع الكبير الدكتور عبدالغفار مكاوي الذي قدم بدوره قراءة مستفيضة للديوان بدأها بالتقرير بأن عبدالرشيد محمودي يعد في رأيه مفاجأة للحياة الأدبية والشعرية، وأكد أنه يندر أن نلتقي بشاعر ناضج على هذا النحو حيث جاء الديوان في أوانه ـ حسب مكاوي ـ خصوصا أننا نشعر أن المشهد الشعري تسوده درجة كبيرة من الاضطراب.

وقال مكاوي: ان الديوان يأتي في وقت نحن أشد ما نكون الى الشعر، ونحن أشد ما نكون الى الاحساس بضرورة الشعر، خاصة أننا نبكي على القيم التي داستها الأقدام. وقال مكاوي مرادفا: لا شك أن قيمة الشعر تكمن في دوره الذي يعيد التذكير بالقيم الكبرى في الحرية والحب والعدل، وأن الديوان يؤكد لنا أن جذوة الشعر المقدسة وجذوة الفن عموما عند الشاعر والأديب تظل متوهجة حتى في المراحل المتقدمة من العمر، واضاف مكاوي: لدينا كثيرون عبر التاريخ منحونا أروع ابداعاتهم بعد الستين والسبعين والثمانين مثلما فاجأنا نجيب محفوظ بأصداء السيرة الذاتية، ومثل غوته الذي انهمر عليه أعظم شعره بعد الستين، وهذا يطمئننا الى أن المسألة ليست تقسيمات للمراحل الأدبية هو بنية العمل نفسه من خلال منظوره لمشكلات المصير الانساني.

وأردف الدكتور مكاوي: في هذا الديوان نجد صعوبة شديدة في التغلغل في هذه الأشياء لأن شخصية صاحبه ثرية متعددة الجوانب فهو قصاص ومترجم ومفكر وكاتب وقدم عددا من الترجمات الرائعة، كل ذلك ينعكس في شعره، فلم يصبح شعرا مجردا وظل يحمل سمات الشعر عن لغته وموسيقاه العذبة.

وأضاف مكاوي: بطبيعة الحال تغلب الفلسفة في الديوان على الشعر ولكن بشكل خفي، فانشغال الشاعر بالقضايا الكبرى مثل من هو الشاعر وماهو الشعر، وما وضع الشاعر في العالم وفي المدينة، ما موقف الشاعر من التراث، وكيف يوظفه ويوطنه في لغته وأرضه؟

وعرج مكاوي على المرثية التي قدمها الديوان للدكتور فؤاد كامل أحد كبار أساتذة الفلسفة وأحد كبار المترجمين الذين أثروا المكتبة العربية بأهم الفلاسفة الغربيين، ويبدو أن العلاقة العميقة التي تربط الشاعر عبدالرشيد محمودي وكذلك الناقد والكاتب عبدالغفار مكاوي بالرجل كان سببا في هذا التوقف المطول أمام المرثية، وربما كان ذلك سببا في حديث مكاوي عن قصيدة رثاء منذ سموندس ـ كما أشار ـ في القرن الخامس، ثم تناوله لعدد من المراثي التي كتبها عن صديق رحلته الصدوق الشاعر صلاح عبدالصبور مرورا بالعديد من الشعراء الذين بكوا أنفسهم مثل مالك بن الريب والمازني وريلكه وغيرهم، وقال مكاوي موضحا ان مرثية عبدالرشيد محمودي لفؤاد كامل تعتبر نموذجا لهذا اللون من الكتابة لأنها تجمع بين القصة والدراما والمعنى الفلسفي التأمل.

ويرى عبدالغفار مكاوي أن قصائد الديوان تعيد انتاج القضايا الكبرى شعريا مثل قصيدة أغنية حب وفيها تغني البجعة أعذب غناءها وهي تموت وهو رمز يعبر عن الشاعر الذي يمارس هذا الغناء في كل ابداعاته، انه يموت أو يعاني آلام الموت وهو يبدع ثم يبعث في عمل ابداعي آخر، وهذه القصيدة ـ يقول مكاوي ـ تلقي الضوء على كون الشعر غناء وأن الشاعر مغن يتألم ويغني عندما يكتب وعندما يحب.

وحول قصيدة «نادي الشعراء»، يقول مكاوي ان طموح الشاعر لأن يكون عضوا في نادي الشعراء هو طموح تاريخي لكثيرين، فقد كان يحيى حقي يتمنى أن يقبل في نادي الشعراء، وقد عبر عن ذلك ايضا الفيلسوف كارل ياسبرز كما يذكر مكاوي.

أما حول الغناء في الشعر فيقول انه جوهر الشعر نفسه، وعندما يفقد الشعر النغمة الغنائية أعتقد أنه لا يبقى منه الكثير، وعلى اثر ذلك ذكر مكاوي أن ريلكه عندما جاء الى مصر وكان ذلك في موسم الصيف أراد الذهاب الى معبد فيلة في أقصى جنوب البلاد فاستقل قاربا صغيرا وكان المجدفون يشعرون بالتعب البالغ في أوقات الظهيرة بعد أن يحل بهم التعب، لكن عندما انطلق أحدهم بالغناء ليردد الباقون خلفه احدى الأغنيات الشعبية عادت القوة الى سواعد البحارة والمجدفين، ويحاول مكاوي هنا أن يؤكد على أهمية عنصر الغناء في الشعر، وان لم أفهم ـ كمتلق ومستمع ـ العلاقة بين الغنائية في الشعر، والغناء الخالص الذي صدر عن المجدفين.

بعد ذلك تطرق مكاوي الى قضية استدعاء التراث في الديوان ولاحظ أن الشاعر يستدعي الكثير من التراث الاغريقي مثل الحداد الأعرد، وعودة المحارب وقال انها تنويع ومحاولة لاستعادة اسطورة يوليسيس الذي يعود الى ايثاكا، ولكن عبدالرشيد يقوم بالعملية التي يقوم بها الشعراء الكبار أي يشرب الأسطورة ويدمجها في الحاضر ويتجدد معها.

غير أن مكاوي يسجل ملاحظة على عدم استدعاء الشاعر لشيء من التراث العربي أو الاسلامي رغم انه على علاقة جيدة بالتراث العربي والاسلامي معا.

واختتم مكاوي كلامه بأن الديوان بصفة عامة يطمئننا الى أن جذوة الشعر المشتعلة مازالت لم تنطفئ، وأن الشاعر سيظل في الغناء الكاشف للكون وان غلبت النزعة الفلسفية للشاعر عبدالرشيد محمودي بصورة خفية.

ثم تحدث الدكتور أحمد درويش الذي جاء مجمل ما قاله احتجاجا على علو تلك النبرة الفلسفية، ورأى أن المناطق الشعرية التي علا فيها صوت الفلسفة شهد الغناء الشعري تراجعا واضحا ثم عرج كعادته على شعر هذه الأيام وعاد الى توجيه السباب الى قصيدة النثر، غير أن اجمالي ما قاله لا يستحق النقاش، فقد سبق له مرات ومرات ان اطلق لفظ العصيدة بدلا من القصيدة على قصيدة النثر، دون أن يفصح لنا عن قيمة هذه السخرية التي تقصد خفة الظل، لكن القصد جانبها.

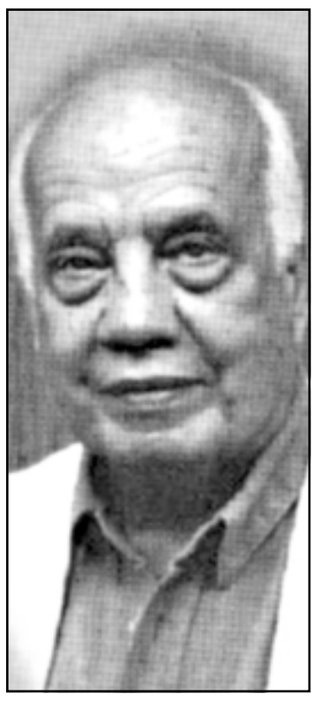

عبد الرشيد محمودي

شاهد في

أمثولة غاتسبي

خيري منصور *

■ عندما ترجم الراحل نجيب المانع رواية «غاتسبي العظيم» لأول مرة حفظ عدد من الأدباء العرب ومنهم عراقيون صفحات منها عن ظهر قلب، وحين سألته ذات ظهيرة بغدادية عن سر هذا الافتتان بالرواية أجاب بأن هناك سرا لا يتعلق بالحدث أو بأسلوب الترجمة، انه دغدغة عواطف الأدباء الفقراء الذين يشاركون سكوت فيتزغرالد أحلامه بالثراء وبالعالم الذي صوره على نحو مثير في رواية غاتسبي، وهذه مناسبة لاستذكار الصديق نجيب الذي لم يكن مانعا على الاطلاق بل كان مانحا بامتياز فقد تدربت في منزله في حي القصاة في بغداد على الإصغاء لأوبرا فاغنر إلتي كان شغوفا بسماعها وكان سيغفريد بالنسبة إليه كيانا نورانيا، أما آلة التسجيل التي اشتراها على حساب حاجات أساسية فهي كما قال لي تتيح له أن يسمع الدقات الثلاث، لحظة الغسق الفاغنري وحين غروب الآلهة.

بعد ذلك بعقدين من الزمن شاهدت فيلم غاتسبي العظيم الذي ضاعف من قناعتي بسر انجذاب بعض الأدباء العرب الأشد فقرا بالرواية.

بيت عال يعج بالثريات وحدائق تتدلى منها عناقيد الكرستال، وتلمع تحتها أسنان شديدة البياض لنساء ذوات حفيف حريري وروائح تضمخ الهواء بعبق آسر، وحقيقة الأمر ان اهتمامي بسكوت فيتزغرالد كان مبكرا وقبل أن أقرأ له كلمة واحدة من غاتسبي العظيم أو ذلك الجان من الفردوس، كان كولن ويلسون مفتاحنا الذهبي الذي نديره في كل الأقفال ومنها ما يصر ومنها ما يبقى موصدا.

قدم ويلسون فيتزغرالد كظل وصدى لهمنغواي لكنه ألح على جانب واحد، هو شغف فيتزغرالد بالمال وعالم الأثرياء وبريق النجوم لهذا ما إن حصل على مبلغ من المال بعد انتشار روايته غاتسبي حتى أصيب هو وصديقته زيلدا بفقدان الرشد وهرعا معا الى الشوارع يستوقفان المارة ويرقصان على الأرصفة وأحيانا أمام شارات المرور.

لقد أهدى فيتزغرالد روايته الأولى الى زيلدا وفي الرواية الثانية الأقل نجاحا كتب إهداء بسيطا هو الى زيلدا مرة أخرى.

وكانت تلك الوقائع المتناثرة عن حياة هذا الكاتب قد أسالت لعاب جيل على قراءة أعماله، فقرأها بالانكليزية من كان يعرف هذه اللغة وانتظر ترجمتها الى العربية آخرون!

اعترف درءا لأي التباس ذي صلة بهذا العنوان بأن هدفي ليس تقديم قراءة نقدية لمشروع فيتزغرالد الروائي، وما أهدف اليه بالتحديد هو الصدمة التي تشل وعي الكاتب إذا اعتقد بأنه حقق أحلامه، خصوصا إذا كان من هذا العالم العربي الذي يعاني أكثرية كتابه من البؤس وقد يدفعهم فائض الشقاء الى ابتكار فراديس من طراز فردوس فيتزغرالد، لأنهم عندما يحصلون على بطاقات انتساب الى النادي الذي حلموا به طويلا، ويرون عن كثب كيف يعيش الأثرياء والزيف الذي يدفع علاقاتهم وسطحية تفكيرهم التي برع سارتر في وصفها في رواية الغثيان عندما تحدث عن بورجوازيي مدينة بوفيل يصابون حتما بالصدمة غير المنتظرة على الاطلاق والتي قد تسبب فقدان الصواب واختلال التوازن!

واليوتوبيا التي ينسجها المحرومون عن عالم الرفاهية والموسرين، سرعان ما تنقلب الى ديستوبيا أي مدينة رازلة لأنهم كما يقول مثل عربي شعبي يدركون أن الباشا رجل مثلهم وليس باشا كالذي نسجه خيالهم، ولو كانوا أصغر سنا لكانت قصة أندرسون الشهيرة عن ضبط الامبراطور متلبسا بعريه تليق بهم!

والسؤال الذي لا بد ان يقاطعنا في هذه التداعيات هو ما الذي تخيله وحلم به سكوت فيتزغرالد قبل أن يظفر بالمال والشهرة؟

بالتأكيد كان يرى في هذا العالم المحتجب خلف الأفق كل ما ينقصه، وقد يكون اضاف الخلود الى تلك الكائنات الفانية لأنها تملك، وترفل في نعيم يجهله، ومن الناحية السايكولوجية على الأقل فإن الشهرة لها أعراض جانبية تساوي الداء ذاته، بشروطها الصعبة وحاجة من يظفر بها أو بقدر منها الى إدامة امتلاكها.

والكتاب الصادر قبل عامين في الولايات المتحدة عن اقتصاديات الشهرة يفتح بابا كان موصدا في هذه القلعة الوهمية، ان كل انسان مفطور منذ الولادة على السعي الدؤوب نحو تحقيق الذات، فإن ولد من أسرة شهيرة وذات مال ونفوذ كفاه الله شر القتال، وتوهم بأن ذاته متحققة منذ الولادة.

نذكر على سبيل المثال عندما كنا تلاميذ في الابتدائية كيف كان المعلم يتيح لأحدنا تحقيق الذات في مستوى أولي عندما يناديه باسمه.

وما كان هواجس بدائية وفجة ونحن صغار تجلى في صور أخرى عندما كبرنا، ولا أظن أن هناك شاعرا أو كاتبا لم يتلذذ برؤية اسمه مطبوعا في جريدة على الأقل في صباه وقبل أن يكتشف الحقيقة ويضبط أباطرة النشر عراة!

هناك اعتراف آخر لا بأس أن أجهر به في هذا السياق ولعله ساهم في تحريضي على إعادة قراءة فيتزغرالد ومشاهدة غاتسبي فالفيديو.

كنت خارجا للتو من احدى دور السينما في القاهرة بعد مشاهدة فيلم «يعقوبيان» الذي مثل فيه عادل إمام دور زكي دسوقي أو الباشا الذي تحول الى أطلال.

وسمعت من أحد الأصدقاء تعليقا مثيرا حول دور عادل إمام، قال انه لا يتقن دور الارستقراطي لأن طريقة حمله للسيجار وتدخينه ليست أصيلة، وبالطبع لم يكن هذا الصديق ابن باشا أو مدخن سيجار على طريقة تشرتشل أو حتى فؤاد سراج الدين، لكن الصورة التي رسمها في مخيلته للارستقراطي تقترب من صورته لدى فيتزغرالد، فهي قد تكون ذات جذر واقعي، لكن الريش الذي ينبت عليها اضعاف ريش الطاووس!

وقد تكون وقائع صغرى كهذه عابرة بمقياس آخر غير تأملي، وغير خاضع للمعاينة المجهرية التي تحيل الى ظواهر، لكنها الواحد بالألف الذي تتجاوز قيمته الألف كما قال لوركا عندما يتعلق الأمر بالاستقراء المعمق والاستبطان وبالتالي البحث عن الدلالات.

وقد تكون هذه مناسبة لتذكير القارئ بالحكايات شبه الاسطورية التي ينسجها الفقراء عن الأغنياء خصوصا عندما يكون هؤلاء الفقراء من الكتاب الذين يعتقدون بأن الحظ أخطأهم أو أنهم بانتظار جيل قادم ينفض عنهم غبار الزمن ولا مبالاة معاصريهم ان ابتكار صور ومشاهد «غاتسبية» كتلك التي تلألأت في حدائق القصر الباذخ أمر يتولاه اثنان.

أحدهما حالم بالثراء دون أن يملك مقومات الحصول عليه عمليا، والثاني يتقمص حالات يحلم بها، ثم يصدق نفسه، لكنه حين لا يجد من يشاركه اعتقاده الخاطئ ينتهي الى مصح نفسي!

والكاتب ليس بالضرورة أحد هذين النموذجين، لكنه أحيانا وفي حالات خاصة يكونهما معا، بسبب إساءة التقدير والالتباس الناشئ عن الخلط بين الجاه الاجتماعي والابداع وهناك تفسير يتداخل فيه الاجتماعي والنفسي لهذه الظاهرة القابلة للتحول الى أمثولة، فهناك تيارات ثقافية أساءت فهم الفلسفات المنادية بالعدل والمساواة وظنت أن المقصود بذلك هو تعميم الفقر ومنهجه الشقاء وتحويلهما الى مطلب يومي، وبدلا من أن ينصرف الذهن الى أسئلة أخرى، يتورط في ارتكاسات نفسية، فلو كان الكاتب العربي يجد في نطاقه الثقافي والقومي خمسين ألف قارئ لكان الحال غير الحال، لكن الربع مليار عربي لا يقرأون إلا لماما، وأشهر كتابهم يوزع خمسة آلاف نسخة ان الانزلاق نحو أمثولة غاتسبي سببه الحول، ان لم يكن العمى عن المشهد الواقعي، والكتابة بالنسبة لمن راهنوا عليها خيارا وجوديا وتحقيقا جوهريا للذات لا تستهدف الانتساب الى النوادي على اختلاف اشكالها، بدءا من نوادي النقابات والاتحادات التي تحذف الفارق بين كاتب الأدب وكاتب المحكمة حتى نادي الأثرياء الذي حلم به غاتسبي وتحطم تحت ثرياته اللامعة، التي لم تستطع ان تهزم الليل في داخله.

ان التعويل المبالغ به على أي هدف في مهنة الكتابة نهايته المحتمة هي الأمثولة الغاسبية أو أحد مرادفاتها.

* شاعر وكاتب من الاردن

قـــص

إسكان

رياض بيدس *

سيدي وزير الاسكان كلي الوقار والاحترام،

■ لا اعرف اذا كانت رسالتي هذه ستصلك، لان رسائلي غالبا ما لا تصل، او انها تصل ولا اسمع جوابا عنها، كأن رسائلي موجهة الى اشخاص لا يجيبون، او ان الامر كما هي حالتي في هذه البلاد لست موجودا او ان عنواني ضاع منذ زمن بعيد وما استطاع احد ان يعثر عليه حتى يومنا هذا او انه غيّب وانا ضمنا غيّبت معه. اعذرني سيدي وزير الاسكان العادل، فلقد ترددت كثيرا بشأن العنوان الذي يجب ان امهر به رسالتي هذه ذات الاتجاه الواحد حتما. أأرسل بها اليك، ام الى وزير الداخلية، ام الى وزير الصحة خاصة ان صحتنا تتعرّض لتدمير يومي متواصل، ام الى وزير الدفاع المبجّل، ام؟ ام؟ احترت كثيرا، لانه كما تعرف يا سيدي الوزير ليس لي في الوزارات ولا في الاعمال او الاشغال الحكومية اي شأن لذا رأيت ان اوجّه هذه الرسالة اليك لاسباب عميقة غائرة غائمة في اعماقي لا ادري كنهها حقا او اني ببساطة لا اريد ان اعرف، لكني لو شئت البحث في هذه الاعماق التي تحمل جثثا من الرغبات القتيلة لكنت من دون كبير جهد استطيع ان اخمّن ان كلمة اسكان هي السبب. قد تستغرب ان كلمة اسكان تأسرني على هذا النحو الجيّاش المضطرب العنيف، لكنه في الحقيقة ليس في هذا الامر اية غرابة اذ كان هذا شأني دائما مع هذه الكلمة، ولا اخفي عليك اني لطالما تلذذت بترديد كلمة اسكان بيني وبين نفسي بحذر وخوف وبشيء من الرهبة خوفا من ألا اكون من السكان او اكتشف ان هذه الكلمة وما تحملها من معنى نبيل ليست لي او لن هم مثلي او اني ببساطة لست قدّها وليست معمولة على مقاسي الصغير المتلاشي المتضائل يوما بعد يوم، او اقف على حقيقة اقسى من ان احتملها وهي اني مخلوق طارئ او في احسن الاحوال مجرد ضيف ثقيل الظل، او اني ليس لي اي شيء في كلمة السكان هذه التي يستعملها غيري بطبيعية وطلاقة وعفوية احسدهم عليها او انهم لا يأتون على ذكرها لانه من البدهي جدا ان يكونوا من السكان، لذا كما ترى فعلاقتي مع هذه الكلمة غائمة ملتبسة وموجعة ومليئة بجراح لا تني تنفتح وتثور كأنها تنوي الثأر لنفسها. ربما يا سيدي الوزير كان هذا هو السبب لاختياري توجيه رسالتي الى وزير الاسكان وليس الى اي وزير آخر، فلكلمة اسكان وقع خاص على اذني وعلى روحي وعقلي ووجداني، انها كلمة ساحرة جدا، وساصارحك ايها الوزير اني حين ارى كلمة اسكان في الجريدة اية جريدة وبالذات اذا كانت عبرية فاني الصق عينيّ بها كما لو كنت اطبق شفتيّ على شفتي امرأة جميلة حظيت بها بعد ان اشتهيتها طويلا ودوختني وانا اطاردها. اجل الى هذا الحد. واظل احملق في كلمة اسكان الى ان يضعف نظري ولا ارى امامي حروفا بل ارى غباشا وتزوغ عيناي واروخ، وتضطرب روحي وكل كياني، واعود الى الواقع مهروسا محطما لان السكان هم السكان وانا هو انا، اي اني عصي على الاندراج تحت سماء هذه الكلمة الرحيبة الواسعة البسيطة في كل العالم والصعبة لا بل المستحيلة هنا والتي تضيق على البعض من امثالي.

سيدي الوزير، اعتقد اني انسان دؤوب واسعى سعيا حثيثا يائسا لان اكون من السكان واحاول واجتهد، وغالبا لا بل دائما ما يكون الاخفاق من نصيبي، واي نصيب قاس هذا. ولا اعزو هذا الاخفاق الشرس المهين في فشلي الباتر بالانتماء الى السكان واسكان وكل مشتقات هذه الكلمة الا لسبب شخصي ذاتي يعود اليّ وحدي، اي اني انا السبب وراء الفشل المحيق بي ولست انت، واعزو كل اخفاقي الى سبب ذاتي او لخلل فيّ لئلا اسبّب حرجا لك فانا شديد الحرج اذا ما عملت على احراج الآخرين او اذا ما احرجت انا، هذا هو سبب اخفاقي يا سيدي الوزير. واستميحك العذر اذا كنت قد بالغت وذهبت بعيدا في تعبيري عن عميق شهوتي للانتماء الى السكان الى المكان الى البلاد التي هي اصلا بلادي وقرنت هذه الشهوة بالشهوة الى شفتي امرأة جميلة، كل ما في الامر هو اني اردت ان اعبّر لك عن عميق رغبتي السكانية التي ترفض السكون او الموات او حتى ان تعف عني وتريحني، لقد حاولت كثيرا ان اجتثها من رأسي ومن كل حياتي بشتى الطرق غير ان الكلفة كانت عالية جدا اذ كانت تختفي لفترة قصيرة ثم لا تفتأ ان تعود وتنفجر على نحو قوي عاصف لا سبيل الى مقاومتها او ردعها. هذا هو حال الامر يا سيدي الوزير، فمنذ وعيت على الدنيا وكلمة سكان مشحونة في ذاكرتي بالكثير لذا اتحاشاها وابتعد عنها واتجاهلها واحاول كل ما بوسعي لطمسها في غياهب عقلي وذاكرتي، لكنها وغصبا عني تعود احيانا وتطل كأنها تنوي تدويخي وتعذيبي وتقزيمي. فما العمل؟!

علي أن اعترف لك يا سيادة الوزير اني في الفترة الاخيرة، وبالذات في الحرب تغيرت او ان الدنيا حولي تغيّرت قليلا. ولحسن حظي اني كنت خلال هذه الحرب الضروس في البلاد. لو كنت خارج البلاد لاحتجت الى بدالة تليفون كاملة لكثرة الاتصالات التي كنت سأقوم بها للاطمئنان على من اعرف هنا، كما اني كنت سأدور هناك كالمجنون. لكن الحظ ولمرة واحدة في هذا العمر حالفني وكنت هنا في زمن الحرب. انا محظوظ، حقا، لو كان لي ان اسجلّ ضحكتي هنا التي انطلقت مني لجلجلت في مكتبك ووصلت آخر الدنيا لكن معلش، وعلي ان اكون اكثر تفاؤلا لان وجودي خلال الحرب امر حسن جدا احسد نفسي عليه. هنا ارجو يا سيادة الوزير ان تفهمني جيدا، فانا لست من دعاة او هواة الحروب. الحرب بشعة جدا، لكن حضوري خلال هذه الحرب كان لصالحي. فلاول مرة في حياتي اشعر يا سيادة الوزير شعورا غريبا ارجو الا يكون مؤقتا عابرا، فخلال الحرب صرت اشعر اني شريك الى حد ما، واني قادر على سماع كلمة سكان وان اعتبر نفسي ولو تجاوزا اني قد اكون فعلا من سكان هذه البلاد واني مواطن، اجل مواطن ولو نسبي، فانا لست ظلا او خيالا او وهما، انا مواطن بنسبة قليلة جدا ليس لي ان اذكر مقدارها هنا لانها قد تكون باعثة على صدمة لي وللآخرين، ومع هذا كان يكفيني القليل من الشعور باني من السكان والقليل باني مواطن او شبه مواطن اذا شئت الدقة لكي اشعر بسعادة غامرة ما شعرت بمثلها من قبل ولا طالني دفؤها في وقت سابق، هذا ما اكدته لي هذه الحرب القاسية الغبية تأكيدا قاطعا. لقد جعلتني صواريخ الكاتيوشا المتساقطة اشعر اني مواطن وان هذه الصواريخ توحدنا جميعا وتجعلنا سكانا متساويين ولو بنسبة الخطر التي نتعرّض لها، اي اني من سكان هذه البلاد واني مواطن موجود واني كغيري من سكان هذه البلاد قد اصاب بشظية صاروخ واموت، اجل ببساطة اموت وافقد حياتي ووجودي اللذين كانا دائما موضع شك، لكني في هذه الحرب تأكدت اني كائن حي مثلي مثل اي مواطن آخر.

اعذرني يا سيادة الوزير اذا ما تجاوزت حدودي هنا لشعوري هذا الشعور العالي النبيل، فالخوف مما يحدث جعلني اشعر مثل اي شخص آخر في هذه البلاد، فكما تعرف كان الموت يحوم في الاجواء عنيفا نشطا كما لم يحدث من قبل، وفي هذه الحرب كرهت الموت وكرهت كل عربدته وسطوته وبطشه لانه كاد بمنتهى الصفاقة والوقاحة واللؤم ان يفسد علي شعوري لاني كنت انا الآخر معرّضا لخطره كما كان يتعرّض له الآخرون تماما، اي كنت متساويا مع الآخرين لدرجة الموت الجدي. وهكذا تساوينا لمرة واحدة. وكرهت الشظايا والموت لاني على غير ما هو متوقع شعرت اني مواطن واني من السكان فقط في هذه الحرب اللعينة وكرهت ان اموت وانا امتلك ذلك الشعور الرائع الذي نبع من اعماقي متفجرا على نحو عفوي وان اخسر ما حلمت به طوال حياتي. شظية صغيرة من صاروخ كانت كفيلة بالقضاء على السعادة الدفينة التي شعرت بها في هذه الحرب التي وحدتنا.

اعذرني يا سيادة الوزير وارجو الا تسيء فهمي، فسعادتي ليست نابعة من الحرب ابدا، لن تسعدني اي حرب. لكن هذه الحرب جعلتني اشعر ببعض من وجودي الضائع او المضيّع من سكني من وطني في هذه البلاد الجميلة جغرافيا فقط. وفي الجانب الآخر كنت منهارا مما يحدث يا سيادة الوزير من مناظر الحرب المريعة والتدمير وقتل الاطفال والمدنيين الابرياء في لبنان، وكنت اسمع صفارة الانذار ولا اختبئ، واين سأختبئ اذ لا توجد عندنا ملاجئ ولا يحزنون. كنت لا اركض بل ابقى في مكاني اشاهد ما يبثه التلفزيون وانا اكاد اتداعى، اتجمّد في مكاني واتخيّل ان صاروخا لئيما قد يقصم فجأة ظلا من السعادة لشعوري اني من السكان واني كائن بشري قد يقع لي اي مكروه كما قد يقع لاي واحد من اهل هذه البلاد، هل جمعنا الخوف؟ ممكن جدا، او اني غدوت فجأة مواطنا او اشبه بمواطن او هذا ما شعرت به آنذاك. كانت رحى الحرب تدور وتطحن وتدمر وتقتل في لبنان وكانت الصواريخ تسقط على حيفا والجليل وكنت اتوجع واتألم لمرأى القتلى وكنت ازداد شعورا اني عرضة للخطر مثلي مثل اي واحد من سكان هذه البلاد، وكان هذا الشعور يعزّيني بعض الشيء في حرب عبثية كان يمكن ان لا تكون بالمرة وان تحقن دماء كثيرة، ومع ذلك كانت هذه الحرب.

سيدي وزير الاسكان الموقر، لاول مرة اشعر اني شريك بعض الشيء في هذه البلاد، بالطبع لست شريكا في صناعة الحروب، بل شريك في اقتسام الخطر، خطر الصواريخ المتساقطة على الجميع من سكان البلاد الذين ينقسمون الى قسمين واضحين: سكان درجة اولى التي اليها تنتمي انت يا سيادة الوزير بطبيعة الحال، وسكان درجة سلّم ريختر للهزات السكانية التي انتمي اليها انا والتي يجري دراسة امرها دائما لانها فائضة عن الحاجة ناهيك عن انها قنبلة عددية موقوتة. وعلى الرغم من كل هذه التقسيمات الجيولوجية التي لا تجد لها مثيلا في العالم الا هنا، فاني في هذه الحرب تعاليت على هذه التقسيمات وعلى حساسيتي الزائدة من اني دخيل على بلادكم وعلى حياتكم وشعرت اني حقا من سكان هذه البلاد، وهنا يا سيدي الوزير احلف واتحالف لك بحياتي ان شعوري هذا لم يبلغ مبلغا كبيرا من التطوّر بل كان الى حد ما، فقط الى حد ما. فانا اعرف حدودي واذا ما تجاوزتها قليلا في زمن الحرب فلا ضير في ذلك، لانك بعد الحرب وحين تهدأ الامور قد تعيد رسم الحدود لي مرة اخرى بشكل اوضح وحتى اقسى من السابق. اذ كيف اتجرأ على ان اشعر مثل هذا الشعور الذي هو ليس من حقي وان احتفي بنفسي مواطنا، فهذه من اخطر التجاوزات وعلي ان ادارك الامر واعود الى سابق عهدي ربما مع اختلاف بسيط هو اني استطعت ان اذوق لمرة واحدة طعم ان اكون مواطنا ومن السكان حتى لو كان ذلك في الحرب. اتخيلّك يا سيدي تقول لي منرفزا حانقا مشمئزا، «مرة واحدة اسامحك عليها وعليك ان تعرف انك محظوظ لانك شعرت بها، غيرك يموت هنا من دون ان يذوق طعمها ولا مرة اما انت فلقد وصلت الى السماء السابعة في الحرب (ثم تصعّر خدك مخيفا) وعليك ان تعرف ايضا ان هذه ليست للشبع بل انها لمرة واحدة فقط ولفترة قصيرة جدا وانت عربدت فيها لشهر طوال الحرب مستغلا الظروف التي تمر فيها البلاد.» اعتذر، اعتذر يا سيادة الوزير واعدك ان اطمس كل ما شعرت به، ولو كان هناك سبيل لطمس مثل هذا الشعور حتى في زمن الحرب لكنت فعلت، لاني لا انشد الا ان اكون مواطنا عفوا عفوا عفوا قصدي مخلوقا او كائنا او شيئا صالحا ليس الا. واقسم لك بأغلظ الايمان اني في الحرب القادمة لن اسمح لنفسي بان اشعر بشيء الا بقليل من الرعب اذا كان مسموحا لي، فالرعب حالة انسانية مزعجة جدا ولا اعتقد انك تعترض على ان اصاب بالرعب لا بل ان اظل مرعوبا مدى حياتي كما هي حالتي دائما يا سيادة الوزير مع حرب او دون حرب. وهكذا بدلا من ان اكون من السكان وان اتعامل مع هذه الكلمة بطبيعية وتلقائية تماما مثلما تتعامل معها انت وغيرك اجبر على العودة الى حالتي التي برمجت عليها هنا وهي انه اذا كان لي هنالك حق ما في التعامل بالسكان والسكنى والسكن فليس لي الا حق ان اكون مسكونا بالخوف والرعب. هذا هو الحق الوحيد الذي اغدقت به علي بغزارة ولا تدري كم انا شاكر لك صنيعك هذا، لانه عبر هذا الحق البسيط الرهيب لي استطيع ان اظل اتعامل مع سكن وسكنى وسكان، اي لا يضيع مني كل شيء دفعة واحدة، بل حتى من خلال رعبي الذي قذفتني في اعماقه اظل على صلة بالكلمة الحبيبة التي تتمنّع علي، وكما نقول مجرّح ولا مقتول. ان حل الرعب الذي اجترحته لي يا سيدي والذي زودتني به بكميات كبيرة جدا كان حلا ممتازا لك. اما لي فاظن انه كان حلا لا بأس به، اذ من خلال الرعب الذي يسكنني ويستوطي حيطي ل